البرامج الاصلاحية داخل مؤسسات اصلاح الكبار

م.م. دنيا جليل اسماعيل كلية التربية / جامعة ديالى

المقدمة :

لعل من السمات البارزة التي تميز نهضتنا الفكرية ذلك الاهتمام المتزايد بالبحوث الاجتماعية التي تهدف إلى دراسة ظواهر المجتمع وبحث مختلف المشكلات الاجتماعية التي تجابهه ومعرفة حاجات المجتمع لمقابلتها، وفي بحثنا هذا سنتناول البرامج الإصلاحية للنزلاء داخل السجون فالمودعون في مؤسسات إصلاح الكبار هم في تعريفهم الكلي العام أناس انتهكوا القانون أي إنهم ارتكبوا أفعالاً عدها المجتمع من خلال قوانينه جرائم يعاقب عليها، فهم يدفعون الثمن الاجتماعي ممثلا في مصادرة الحرية لمدة معينة من الزمن والمجتمع اذ يصادر حرياتهم لا يستهدف إيذاءهم والانتقام منهم فهم في التحليل النهائي مواطنون ويمثلون من الناحية المهنية مجموعة من الخبرات التي كان يمكن للمجتمع أن يستثمرها على نحو يمكن معه الإفادة منهم في مجالات عديدة ورغم تداعي غالبية الاساليب العقابية التقليدية وظهور طرق إصلاحية جديدة في معاملة المذنبين والجانحين منذ بداية القرن الحالي الا ان الحبس ظل هو الاسلوب الرئيسي للتعامل مع المجرمين وبوجه خاص اؤلئك المجرمون العائدون كما وظلت المؤسسات الإصلاحية حقولا تطبيقية ومختبرات عملية لتطبيق بعض الفرضيات العلمية وتحقيق بعض الأهداف الإصلاحية او العلاجية في معاملة المذنبين ولذلك لم تعد تلك المؤسسات مجرد أماكن للحجز والعقوبة بل تحولت وفق المنطق الحديث في المجالات الاجتماعية والتقنية الى مؤسسات إصلاحية أي مؤسسات تتضمن مجموعة من البرامج التي تستهدف حث النزيل على الامتثال لقواعد المجتمع واجتثاث عوامل الانحراف وإيجاد الموجهات والقيم التي تجعل النزيل مواطنا صالحا وسوياً، ومع أن نجاح تلك المؤسسات يتوقف على عوامل عديدة منها فاعلية الإجراءات والبرامج ومدى تقبل النزيل ونوع الجريمة ومدة العقوبة وصلاحية المؤسسات الإصلاحية .

المبحث الأول

السجن Prison

(أ) **السجن بوصفه مؤسسة / إصلاحية** Reformatory Institute :

السجن (قانوناً) هو المكان المخصص لتنفيذ العقوبات والتدابير الاحترازية السالبة للحرية .

والسجن مفهوم قديم , ورد ذكره في القرآن الكريم كحقيقة واقعية في قصة النبي يوسف (عليه السلام) وذلك في آيات عدة من (سورة يوسف) .. قال تعالى : ﴿ قال ربِ السجنُ أحب إليّ مما يدعونني إليه ﴾ , وفي قصة النبي موسى (عليه السلام) مع فرعون , جاء لفظ السجن تهديداً من فرعون لموسى .. قال تعالى : ﴿ قال لئن اتخذت آلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾[١] .

وقد وجد السجن في جميع الأزمان والأمصار دون إنكار وبرزت أهميته والمصلحة من وجوده وإن اختلفت هذه المصلحة واختلفت وظيفة السجن على مر العصور لارتباطها بتطور وظيفة العقوبة التي ارتبطت بدورها بالتطور التاريخي لنظرة المجتمعات البشرية نحو المجرمين .

ففي المجتمعات القديمة , حيث كان الغرض من العقوبة هو إطفاء شهوة الانتقام لدى المجني عليه أو ذويه , سادت العقوبات البدنية التي لا يستغرق تنفيذها وقتاً طويلاً كالإعدام وبتر الأعضاء وتشويهها وصور التعذيب الأخرى . ولم تهتم المجتمعات القديمة بأمر هذه السجون ولا بظروف من يودع فيها من المجرمين . حيث لا ترى للسجون من وظيفة إلا منع المودعين من الهرب لذا كانوا يسجنون في الكهوف , أو في الحصون والقلاع القديمة التي تنتفي الحاجة إليها , لحين معاقبتهم . ولم يصبح السجن الوسيلة الرئيسية للعقاب إلا في القرن الثامن عشر[٢] .

وبتطور الفكر الإنساني بشأن تفسير السلوك الإجرامي تطورت فلسفة العقاب وبالتالي تطورت النظرة الى مفهوم السجن . " فلم تعد وظيفة السجن مقتصرة على مجرد منع السجناء من الهرب , ولم يعد سائغاً أن يكون من أغراض السجن أو من أساليب وظيفته التنكيل بنزلائه وإنزال العذاب بهم " .

فقد أدرك المعنيون بالشؤون الجنائية ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حقيقة ظاهرة الإجرام كمشكلة اجتماعية لا يمكن التخفيف من حدتها إلا باستخدام الطرق العلمية الحديثة في معالجة المجرمين ومكافحة الإجرام والوقاية منه , فأصبح هدف العقاب إصلاح المجرمين وتأهيلهم , حيث " لم يعد المجرم بنظر المجتمع إنساناً خارجاً على القانون فقط ينبغي القضاء عليه أو الانتقام منه , بل أصبح ينظر إليه كإنسان منحرف عن الطريق القديم لأسباب يسعى المجتمع لتفهمها بغية معالجتها والحيلولة دون تحكمها به طيلة حياته[٣] .

لذا فإن السجن الذي " كان يعد سابقاً غاية بحد ذاته هدفها الأساس حجر حرية المحكوم عليه , وعزله عن الحياة العامة وفرض الحرمان والعذاب عليه , أصبح هذا السجن نتيجة لتطور مبادئ العقاب والتفكير الاجتماعي وسيلة لا غاية .

وسيلة لتحقيق أهداف المجتمع في ضبط الجريمة , ووسيلة لإصلاح المجرم وتقويم شخصيته وتأهله للعودة الى المجتمع شخصاً مؤتلفاً مع نظمه محترماً لقوانينه[٤] .

وقد استتبع هذا التغير في النظرة الى عقوبة السجن تغييراً في نوعية ووظيفة السجون الحديثة . " وظهر نظام التصنيف الذي جاء نتيجة لتطبيق مبدأ تفريد العقاب Individualized Punishment . وتطلب ذلك أنواعاً مختلفة من المؤسسات العقابية , وتقرير أسلوب خاص للمعاملة داخل كل مؤسسة واستدعى كل ذلك الاستعانة بخبرات الاختصاصيين في مختلف العلوم الإنسانية وفي شتى المجالات [٥] فقد أصبح من الضروري أن يشمل السجن منهاجاً للإصلاح والعلاج والتهذيب والتدريب .. وهذا هو الاتجاه الحديث في النظرة الى السجن على اعتبار أنه مؤسسة إصلاحية وليست لمجرد العقاب .

وقد خطى القطر العراقي خطوات متقدمة بهذا الاتجاه بعد ثورة تموز ١٩٦٨ . حيث صدر في عام ١٩٦٩ قانون مصلحة السجون ليحل محل قانون عام ١٩٣٦ . وقد جاء في الأسباب الموجبة لهذا القانون ما يأتي " أن النظرية الحديثة لإصلاح السجين وتقويم سلوكه وتأهيله ثقافياً ومهنياً ليصبح عضواً صالحاً في الهيئة الاجتماعية تقضي بإعادة النظر في حالة السجون العراقية وقوانينها التي لم تعد صالحة لمواجهة التطور الحديث في إصلاح المجرم في ضوء الطرق العلمية الحديثة[٦] .

وانسجاماً مع المبادئ والأساليب المعاصرة في مجال رعاية وتأهيل المجرمين فقد جاء قانون المؤسسة العامة للإصلاح الاجتماعي رقم (١٠٤) لسنة ١٩٨١ متضمناً ملامح النهج المتطور لتنفيذ السياسة العقابية الحديثة التي تستند الى فكرة الرعاية والتأهيل المهني والسلوكي والثقافي . حيث تبنى هذا القانون استخدام الطرق والوسائل العلمية الحديثة في معاملة المجرمين والجانحين وبما يتماشى مع الاتجاهات العقابية المعاصرة التي أقرها المجتمع الدولي وكذلك قواعد الحد الأدنى لمعاملة المسجونين[٧] .

وفي هذا القانون استعيض عن الاصطلاح القانوني (السجن) بمسمى آخر هو(القسم الإصلاحي) كما استبدل مصطلح (السجين) بمسمى آخر هو (النزيل) بالنسبة للكبار , و(المودع) بالنسبة للأحداث[٨] .

ب- السجن بوصفه مؤسسة اجتماعية / ثقافية :

يمثل السجن نوعاً من المؤسسات الاجتماعية التي يسميها (ايرفينج كوفمان Eriving Goffman) المؤسسات الكلية , كالمصح العقلي والمعتقل . وهو مكان للعيش والعمل . حيث يوجد عدد كبير ممن يشتركون في نفس الحالة مقطوعين عن المجتمع الكبير لمدة زمنية غير قصيرة , يعيشون معاً مغلقين في حياة دائرية تدار رسمياً . ففي هذه المؤسسات تجبر أعداد كبيرة من الأفراد على العيش في مكان واحد تحت سلطة واحدة . ويسير نزلاء هذه المؤسسات عبر الحياة بالرفقة المباشرة

لبعضهم البعض ويكونون تحت رقابة وضبط دقيقتين , ويعرفون من هم في السلطة ومكانة كل منهم[٩] .

وللسجن بوصفه مؤسسة كلية صفة شبه طبقية , حيث يوجد شق أساسي بين النزلاء وهيئة إدارة المؤسسة . حيث يشعر الأخيرون بالفوقية وصحة الموقف , بينما يشعر النزلاء بالدونية والضعف والذنب وإنهم يستحقون اللوم . ويكون التفاعل والحراك بين الشريحتين محدداً جداً والمسافة الاجتماعية غالباً ما تكون موثقة رسمياً بحيث أن موظفي السجن لا يعلمون تماماً ما هي الصلات الاجتماعية السائدة بين النزلاء[١٠] .

فالسجن بوصفه مؤسسة اجتماعية كلية يتضمن شريحتين أو فئتين بشريتين هما(هيئة إدارة السجن) و (النزلاء) . أفراد الفئة الأولى هم الذين يتولون ضبط النزلاء وحراستهم وإصلاحهم وتقويمهم بشكل أو بآخر . أما أفراد الفئة الأخرى فهم النزلاء موضوع الضبط والحراسة والإصلاح والتقويم . وبين هاتين الفئتين بعد اجتماعي كبير يشكل هوة فسيحة لم توفق غالبية سجون العالم في ردمها أو حتى إيصال كل فئة بجسور توفيقية ذات أصول نفسية تصل مصالح كل فئة بمصالح الأخرى[١١] .

إن مهمة هيئة إدارة السجن هي تطبيق النظام وتنفيذ التعليمات المطلوبة لتحقيق متطلبات الأمن والحراسة والضبط الصارم . وهذه أهداف ذات طبيعة قسرية تفرض الحفاظ على بعد اجتماعي ثابت بين كل فئة وأخرى . هذا البعد الذي يجنب التورط في إقامة علاقات شخصية حميمة تفسد على هيئة إدارة السجن أسباب السيطرة وتعيق تطبيق متطلبات الضبط وحفظ النظام داخل المؤسسة .

إن هيئة إدارة السجن من إداريين وأخصائيين وحراس يشكلون فريق عمل وجبهة متماسكة البنيان تقوم على تآزر المواقف ووحدة الأهداف في مواجهة كل ما يعيق تنفيذ متطلبات العمل كموظفين عموميين يمثلون السلطة ويحرصون على تأكيد هذه السلطة من خلال تطبيق النظام والقانون[١٢] .

أما فئة النزلاء فهم يشكلون المادة البشرية التي تخضع لكافة التفاعلات التي تفرزها عملية السجن ذاتها . وهم يمثلون عينة بشرية مصغرة للمجتمع الكبير الذي انحدروا منه .

فالنزلاء أشخاص غير متجانسين ولكنهم يجتمعون حول السبب الواحد الذي أدخلهم السجن وهو ارتكاب الجريمة أو مخالفة القانون لذلك فهم يعيشون مفردات حياة واحدة ويخضعون لمعاملة رسمية واحدة , ويتعرضون لأنماط سلوكية خاصة ويتعرضون الى صراعات ومشكلات تفرزها حياة السجن وعناصره البشرية ومقوماته الثقافية[١٣] .

ولعل من السمات الشخصية المشتركة التي يتميز بها غالبية النزلاء أنهم يعانون ظروفاً نفسية واجتماعية غير طبيعية أو غير سوية , لذلك يغلب على معظمهم الحيرة والخوف والكراهية والعنف والقسوة والشك والعدوانية والريبة ,

والحزن والانتقام , ويطغي الخداع وانعدام الأمانة على التعاطف والتعاون , فهم كمجموعة بشرية كبيرة حكم عليهم بالعيش القسري في محيط جغرافي ضيق لا يسمح بأية خصوصية فردية ولا يترك الكثير للحركة الاعتيادية للإنسان العادي , ولذلك فإن حياة السجن ذات ايقاعات رتيبة ومملة تفتقر الى أوليات التنافس الفردي الذي يجدد أمل الإنسان في بلوغ الأفضل في الحياة[١٤] .

فالنزلاء يعيشون حياة غير طبيعية مفروضة عليهم فرضاً لاحق لهم في تعديل مسيرتها أو اتخاذ أي قرار يتصل بمفرداتها . فهم أشخاص مسلوبو الحرية يعيشون حياتهم اليومية بأوامر إدارة السجن وتعليماتهم ومن خلال ما تجيزه أو تمنعه .

إلا أن حياة النزيل في السجن لا تتوقف على إلتزامه الدقيق بتطبيق الأنظمة والتعليمات الرسمية , بل أن حياته الحقيقية وسعادته أو تعاسته تتوقف بالدرجة الأولى على علاقته بالنزلاء الآخرين ومدى نجاحه في التوافق معهم وتمثل ثقافة السجن في سلوكه[١٥] .

فالنزيل في السجن يعيش في عالمين .. أحدهما رسمي , والآخر غير رسمي . العالم الرسمي عالم صغير يتضمن الجانب الرسمي المحدود من حياة النزيل والذي تجسده الأوامر والتعليمات الرسمية التي تصدرها إدارة السجن . أما العالم غير الرسمي فهو العالم الذي يعيشه النزيل بأحاسيسه ومشاعره , عالم المواقف والاتجاهات والقيم والممارسات اليومية المعتادة , وهو العالم الحقيقي الذي يعيش النزيل فيه[١٦] .

إن الحياة خلف أسوار السجن مدة طويلة غالباً ما تترك بصماتها الثقيلة على شخصية النزيل وتسهم في تشكيل شخصية جديدة يشار إليها " بشخصية السجن " أو " الشخصية السجينة The Prison Personality " , وهي شخصية تتشكل من خلال عملية السجن ذاتها والتي هي إعادة تنشئة ثقافية أو عملية تنشئة مؤسسة " تسجين Prisonization " . فالنزيل الجديد كالشخص الذي ينتقل الى ثقافة جديدة , يجب ألا يقتصر على تعلم الطرق الجديدة للسلوك فحسب , بل عليه أيضاً أن ينسى بعض نماذج سلوكه السابق , فعلى كل نزيل أن يخضع لنظام التنشئة في السجن الى حد ما , وعليه محاولة تغيير عاداته الشخصية للتمشي مع أحوال المقيمين داخل السجن . إذ عليه أن ينتزع عن شخصيته ما علق بها من أنماط سلوكية واتجاهات لا تنسجم ومتطلبات ثقافة مجتمعه الجديد . أي عليه أن ينسى الكثير من الأنماط الثقافية القديمة ليتعلم أخرى جديدة[١٧] .

المبحث الثاني :

التصنيفات والأنواع المعاصرة للسجون :

لازال المجتمع يريد تحصين وحماية نفسه من الجريمة والمجرمين الا انه لا يعني كثيرا بكيفية تحقيق هذه الحماية فالسجون تتدرج في تحقيق مطلب هذه الحماية

بين انتهاج سياسة قمعية صارمة شديدة من خلال ما تفرضه من الحراسة وبين الحدود الامنية المتوسطة او حتى الحدود الدنيا من هذه الحراسة وفما يلي عرض للتصنيفات المعاصرة للسجون :-

١- قد تصنف السجون الى سجون كبيرة ذات حراسة قصوى لإيواء الفئات ذات الخطورة الإجرامية النسبية والمجرمين العائدين وإلى إصلاحيات لقبول الأشخاص الأصغر سناً أو المجرمين الذين يدخلون السجن أول مرة , وإلى مدارس إصلاحية للأحداث الجانحين , والى معسكرات مؤقتة للعمل في الإنشاءات أو الطرق .

٢- وقد تصنف السجون من حيث برامجها الإصلاحية الى إصلاحيات ذات برامج عامة مختلطة وإلى مؤسسات ذات برامج متخصصة كالمراكز الصحية التي تعد للمجرمين الكحوليين ومدمني العقاقير المخدرة والى مؤسسات للنساء .

٣- وقد تصنف السجون وفقاً للاعتبارات الأمنية الى سجون ذات الحراسة القصوى وأخرى ذات حراسة متوسطة وثالثة ذات حراسة دُنيا . وهناك سجون صغيرة تنشئ أو تستأجر داخل المدن أو ضمن المناطق السكنية لقبول الفئات من المجرمين غير الخطرين .

٤- كما وقد تصنف وفقاً لنوعية إدارتها الى سجون ذات إدارة متشددة وأخرى ذات إدارة متساهلة والى سجون ذات إدارة محترفة أو شبه متخصصة كالتي تؤمن بتطبيق بعض الأساليب الحديثة في معاملة السجناء كالبحث الاجتماعي والتأهيل المهني والعلاج النفسي الفردي والجماعي[١٨] .

المبحث الثالث :

الأساليب الرئيسية التي تعتمدها السجون في برامجها المعاصرة :

١- **أسلوب العقاب الصرف :** وهو الأسلوب التقليدي الذي يعتمد المعاملة الخشنة والضبط الصارم والقمع الشديد وهو أسلوب تقره وترضاه وتجنده وسائل التواصل العامة في كثير من المناسبات لأنه يحقق للمجتمع مطلب إيلام المجرم والانتقام للمجتمع من المجرم الذي أذنب بحقه ويعد هذا الأسلوب من الرواسب العقابية القديمة التي ظلت عالقة بالممارسات العقابية المعاصرة .

٢- **أسلوب العلاج أو المعاملة الإصلاحية :** وهو الأسلوب الذي تنتهجه بعض المؤسسات المعاصرة كبديل للعقاب التقليدي وهو الذي يستخدم أساليب التعليم المدرسي والتأهيل المهني وغيرها من الوسائل العلاجية الأخرى .

٣- **الأسلوب المختلط :** الذي يجمع العقاب والعلاج وهو الذي تنتهجه بعض المؤسسات العقابية التقليدية التي تحاول تطعيم العقاب بإجراءات إصلاحية حديثة .

٤- **أسلوب الحراسة كمطلب أول وأخير :** وهو الالتزام التام بتطبيق متطلبات الأمن والحراسة القصوى دون مراعاة لأي عقاب أو علاج . إن بعض المؤسسات المعاصرة لا تمارس العقاب ولا تأبه لعلاج السجناء بل ترغب أن تحتفظ بعزلة المؤسسة عن المجتمع لتكون بعيدة عن رقابة الرأي العام الخارجي , إذ تعمد الى تجميد السجين خلف أسوار السجن العالية وعزله عن المجتمع دون اتخاذ أي إجراء يتصل برعايته أو تحسين حالته .

٥- **أسلوب العمل :** وهو الذي يستخدم السجناء كقوة عمل في إشغال عامة كالإنشاءات والتعمير وتعبيد الطرق والزراعة والفلاحة أو غير ذلك من الأعمال العمومية[١٩] .

المبحث الرابع :

عملية الحبس وآثارها :

الحبس لغة المنع وعرفا حجز الجاني في مكان يمنعه من معاودة ارتكاب الجريمة ويرى فقهاء الشريعة الإسلامية إن الحبس عقوبة تعزيرية تفيد الردع والزجر والتأديب لمن ارتكب جرما لاحد فيه ولا قصاص . اذ هو يهدف إلى منع المجرم من الاختلاط بمن يأنس بهم او بمن يشجعونه على الإجرام . فهو يتضمن عزل المجرم عن المجتمع حتى لا ينتشر فساده كالمريض الموبوء بالمرض الذي يودع في محجر صحي لمدة معينه تفاديا لانتشار مرضه ووقاية ضد عدواه . وفقهاء الشريعة الإسلامية يؤكدون على أن الحبس كعقوبة زاجرة رادعة ينبغي ألا تتسم بطابع اللين أو الترويح او الترفيه بل على شي من الغلظة والخشونة التي تليق بحال المجرم ونوع جريمته لكي يتذكر المجرم ألام العقاب كلما أتيح له التفكير بارتكاب الجريمة في المستقبل؟

ويرى غالبية علماء الاجتماع والخدمة الاجتماعية ان الأشخاص المجرمين الذين يدخلون السجن أشخاص غير متكيفين اجتماعيا ولذلك تصبح وظيفة السجن الأساسية إصلاحهم وتقويمهم ومحاولة اعادة تكييفهم للحياة الاجتماعية السوية تمهيدا لإطلاق سراحهم مرة أخرى الى المجتمع الحر . وتبدأ العملية الاصلاحيه المؤسسية التي تجرى داخل السجن ساعة دخول المجرم الى السجن وتنتهي ساعة اطلاق سراحه منه .

ان غالبية الذين يبرزون بعض الجوانب المضيئة لعملية الاصلاح من خلال ما يطرحونه من بحوث ودراسات علمية نظرية وميدانية لا شك لا يكشفون تلك الجوانب السلبية التي تتضمنها عملية الحبس ذ اتها تلك العملية التي تعد الوعاء الكبير الذي تفرغ فيه كافة التفاعلات النفسية والاجتماعية التي تتصل بالإصلاح .ذلك إننا في الواقع لا نعلم سوى القليل جدا عما يجري بين السجناء أنفسهم من جهة وبينهم وبين سجنائهم من الجهة الاخرى من التفاعلات المتعددة التي تفرضها طبيعة التعايش

الزمني الطويل في محيط السجن وفي اطار ثقافته السفلية . إن السجناء , وكذلك من فرضت عليهم الإقامة والعمل في مجتمع السجن الصغير لاشك انهم اشخاص يعيشون في مجتمع منعزل اغلقت نوافذه على العالم الخارجي ولفترات طالت أو قصرت . فالمجرمون يعيشون اقامه قسرية في مجتمع غريب يدفعون ما بذمتهم من دين لمجتمعاتهم التي اجرموا بحقها[٢٠].

١- عملية اكتساب شخصية السجن :

حيث يوجد التجمع البشري تظهر الحاجة الى وضع قواعد ومعايير وضوابط معينة لتنظيم سلوك افراده وعلاقاتهم .وكلما كبر حجم التجمع اتسع نطاق تنظيمه وتعددت اساليب ضبط افراده وتنوعت اهدافه وفلسفاته .

لقد رسم العلماء الصورة التي يرسمها حراس السجن للسجناء الذين يعيشون واياهم تحت سقف واحد. فهم يعتقدون بان هؤلاء السجناء اشخاص متخلفون عقليا خلقوا كذلك ولا مكان لهم في العالم غير السجن ولا تنفع معهم سوى لغة العقاب التي يفهمونها جيدا . وهم اشخاص كسالى اغبياء فاشلون في حياتهم يفتقرون الى المشاعر الانسانية النبيلة وتعوزهم القدرة على العيش مع الاخرين الاسوياء ولا يجدي معهم استخدام اللين او المعاملة الطيبة ولا امل قريب في اصلاحهم فيما عدا قلة قليلة منهم.

وما علينا سوى ان نتصور كيف يمكن ان تتبلور مواقف وردود فعل السجناء ازاء مثل هذه الصورة المتردية التي يرسمها لهم موظفو السجن المسؤولون عن رعايتهم واصلاحهم وتقويمهم . انها لاشك صورة سيئة تسهم في بناء حاجز نفسي سميك بين السجناء وحراسهم بشكل يغلق كل المنافذ التي تسمح بأية بادرة تسهم في اصلاحهم.

أما العنصر الآخر الذي يتكون من مجتمع السجن فهم السجناء انفسهم وهم يشكلون المادة البشرية التي تخضع لكافة التفاعلات التي تفرزها عملية الحبس ذاتها. وهم يمثلون عينة بشرية مصغرة للمجتمع الكبير الذين انحدروا عنه. فهم اشخاص غير متجانسين في كل شيء ولكنهم يجتمعون حول السبب الواحد الذي ادخلهم السجن وهو ارتكاب الجريمة او مخالفة القانون. والسجناء يعيشون ظروفا اجتماعية ونفسية خاصة ويمارسون علاقات اجتماعية محددة ويسلكون انماطا سلوكية متشابهة. فهم كمجموعة بشرية كبيرة حكم عليها بالعيش القسري في محيط جغرافي ضيق لا يسمح بأية خصوصية فردية ولا يترك الكثير للحركة الاعتيادية للإنسان العادي. ولذلك فان حياة السجن ذات وقت ممل وذبذبات حياتية رتيبة تفتقر الى اوليات التنافس الفردي الذي يجدد امل الانسان في بلوغ الافضل في الحياة . انها حياة مجدبة عقيمة تأخذ من السجين كل شيء ولا تعطيه شيئا[٢١] .

ومجتمع السجن عالم صغير مغلق على اصحابه ينمي فيهم قدرات مستحدثة على تعلم مفردات لغوية فريدة هي لغة السجن الخاصة – وهو مجتمع يشجع افراده على الحسد والنميمة والكراهية وخلق وانتشار الاشاعات وتداول الاحكام المبسترة في شؤون الحياة العامة . ولا شك ان مجتمعا كهذا لا يكون حياديا في تأثيره على الافراد

وتشكيل شخصياتهم . ان الحياة خلف اسوار السجن مدة طويلة غالبا ما تترك بصماتها الثقيلة على شخصية السجين وتسهم في تشكيل شخصية جديدة يشار اليها ((بشخصية السجن)) او ((الشخصية السجنية)) The prison personality .

وهي شخصية تشكل من خلال عملية الحبس ذاتها – اذ هي اعادة تنشئة اجتماعية او عملية تنشئة مؤسسية (تسجين) pressurization . ولكنها في احسن الاحوال عملية توافق اجتماعي طويلة الاجل حيث تتم بخطوات بطيئة متعاقبة قد تطول او تقصر وفقا لاختلافات فردية وتتوقف على مدى استجابة السجين لعناصر ثقافة السجن ذاتها .

فعلى السجين القادم الجديد ان يتعلم اوليات سلوك خاص بمجتمع السجن كما يتعلم الاطفال اوليات سلوك الكبار في مجتمع الاسرة. ولكن السجين يختلف عن الطفل في انه شخص بالغ عليه ان ينتزع عن شخصيته كل ما علق بها من انماط سلوكية واتجاهات لا تنسجم ومتطلبات مجتمعه الجديد .

اذ عليه أن ينسى الكثير من الانماط القديمة ليتعلم اخرى جديدة.وخلافا لعملية التنشئة الاجتماعية التقليدية socialization التي تجرى في المجتمع الكبير فالسجين يخضع لعملية تمثل شبه قسرية ليس بمقدروه تجاوزها او العيش على هامشها او اتخاذ موقف حيادي ازاءها . ويمكن ايجاز بعض ما يتعرض له السجين خلال عملية ((التسجين)) هذه على النحو التالي :

١- تبدأ عملية التسجين ببلورة اتجاهات عدوانية تغلف غالبية مواقف السجين ازاء القانون والسلطة بكل رموزها واشكالها . فالسجين يصبح عدوا للمجتمع يفرغ فيه جام غضبه ويسقط عليه كل ما يعانيه من مرارة وظلم وحرمان واحباط وكآبة . ان السجناء كمجموعة بشرية واحدة يبنون لأنفسهم حصنا دفاعيا ضد السلطة يكسبهم بعض الوقاية والحماية .
٢- والسجين يعيش حياة سوية مفروضة عليه فرضا لا حق له في تعديل مسيرتها او اتخاذ اي قرار يتصل بمفرداتها . فهو يعيش دقائق يومه بأوامر السلطة وتعليماتها ومن خلال ما تجيزه او تمنعه , حيث يأكل ويلبس وينام ويعمل ويقرا ويتحرك ويلهو في حدود ما تقرره سلطة السجن وفي اطار حرية ضيقة لا تتسع لفسحة من المبادرة او الابتكار ولا تترك نافذة ولو صغيرة للمشاركة في صنع بعض القرارات الرئيسية .
٣- السجين شخص يعيش مسلوب الارادة او الحق في اتخاذ اي قرار يتصل به اذ ان جميع هذه القرارات المتصلة بحياته المعاشية داخل السجن , كالمأكل والملبس والمنام والعمل والترويح والاصلاح والارشاد والعلاج والتقويم والتعليم انما هي قرارات يتخذها الاخرون بدلا عنه ومن اجله وله . ولهذا فهو من هذه الناحية لا يعاني بعض مشكلات الحياة اليومية المعتادة بقدر ما يعاني من مشكلة عدم وجود ما يعاني منه على الاطلاق . فهو شخص يعيش

كالآلة التي لا تتحرك الا بمحرك خارجي لا سبيل الى التحكم في حركته ذاتيا بل من الجهة التي تسيره .

٤- ويتعلم السجين في الغالب عادات وانماطا سلوكية لم يعهدها من قبل . فقد يتعلم فنون المقامرة او يمارس عادات جنسية شاذة . وقد يتعلم لغة السجن ويستخدم مفرداتها الغريبة كأسلوب مستحدث للتواصل الاجتماعي بين السجناء في مجتمعهم الصغير . وقد يمارس اساليب الغش والمكر والخداع والكذب واستغلال السلطة واخفاء المعلومات عنها . وقد يتلقن ما فاته من اساليب وتقنيات اجرامية جديدة تفتح له ابواب احتراف الجريمة او تطوير اساليبه الاجرامية الاعتيادية .

٥- ويخضع السجين لعملية تمثل ثقافي بطئ يصبغ بعض جوانب شخصيته او تقربه الى انتهاج او تبني عناصر فلسفة اجرامية او يستكمل بعض سمات هذه الشخصية. انها شخصية تقوم على ارضية من قيم واتجاهات ومواقف لا اجتماعية ولا اخلاقية نحو الافراد ونحو المجتمع ونحو الحياة بوجه عام .

٦- وحياة السجين في مجتمع السجن لا تتوقف على ما يفلح في تحقيق علاقات طيبة بسلطة السجن وموظفيه او التزامه الدقيق بتطبيق الانظمة والتعليمات. بل ان حياته الحقيقية ومستقبل سعادته او تعاسته تتوقف بالدرجة الاولى على علاقته بالسجناء الاخرين ومدى نجاحه في التوافق معهم او مدى نجاحه في تمثل تلك المجموعة الكبيرة من القواعد غير المكتوبة التي تفرضها ثقافة السجن . ان مثل هذه القواعد غير المكتوبة التي تعرف ((بشريعة السجن the prison code)) هي القواعد الاساسية التي ينبغي ان يلتزم بها السجين الذي يريد ان يحيا حياة السجن ويعيش بين افراده . ان الخروج على هذه القواعد غير الرسمية تفقد السجين اساسيات التوافق والانتماء بل وتجعله عنصرا خارجا على شريعة السجن outlaw كالشخص الذي يخرج على القوانين في المجتمع الحر .

٧- ان شريعة السجن قواعد واعراف فرعية هي حصيلة خبرات اجيال متعاقبة على حياة السجون ولذلك فهي اشبه بقواعد ضبط اجتماعي غير رسمي informal control تفوق في اهميتها تلك القواعد والانظمة والتعليمات الرسمية التي تصدرها سلطة السجن [٢٢].

٢- مجتمع السجن وثقافته:

السجن مؤسسة شمولية تحتضن مجتمعا صغيرا يتكون من افراد وجماعات غير متجانسة ولكنهم وجدوا هناك ليعيشوا خلف جدرانه حياة قسرية لا خيار لهم فيها وهم جميعا يزاولون نشاطات يومية موحدة ومن خلال مفردات نظام اجتماعي معين وثقافة فرعية (Subculture) معينة تنعدم فيها حرية التصرف والاختيار الا في حدود ضيقة شبه معدومة .

أما النظام الاجتماعي للسجن the social system فهو تركيب بنائي معقد يتضمن مجموعات بشرية متباينة ومصالح فردية متنافسة واهداف وطموحات متفاوتة .واما مفهوم الطبقة الاجتماعية social class فهو مفهوم غير تقليدي اذ هو يحتوي على عناصر ومقومات غير تقليدية . ذلك ان الطبقية الاجتماعية داخل السجن ذات مواصفات خاصة تقف في مقدمتها خبرة السجين الاجرامية وسوابقه الجنائية . هذا الى جانب بعض الصفات الشخصية الاخرى كالقوة البدنية الخارقة او الشجاعة او الجرأة او العنف او العدوانية او النجاح المادي في عالم الجريمة السفلي او اعتياد مخالفة القانون دون الوقوع في قبضته . انها معايير تتصل بثقافة العالم الاجرامي السفلي the criminal underworld التي تمجد العنف والقوة وتدعو الى استغلال الاخرين والعيش على حسابهم وتحترم المكر والخديعة وتشجع على تحدي السلطة والتمرد على النظام[٢٣] .

والنزلاء في غالبيتهم طبقة محرومة مقهورة وشخصيات غير سوية يعاني افرادها من ظروف اسرية واجتماعية واقتصادية غير سوية .

وفي مجتمع السجن طبقات مختلفة – فهناك طبقة المجرمين المحترفين , وهؤلاء قلة قليلة جدا , ممن اتخذوا الجريمة حرفة او مهنة او اسلوبا من اساليب العيش وهم يتميزون بتأريخ حافل بالسوابق الاجرامية المتعددة . وهناك الطبقة او الفئة السوية التي لا تمت الى عالم الاجرام السفلي بصلة , بل هم اشخاص اسوياء لا زالوا يزدرون بعض انواع الجرائم ويأنفون الانتساب الى اصحابها بل يحتقرون مرتكبيها ولذلك فهم لا يختلطون بالسواد الاعظم من المجرمين في محيط السجن بل يتعالون عليهم رغم قبولهم مرغمين بالعيش معهم في محيط ضيق واحد .

واذا كان التنافس الاقتصادي , بمعناه التقليدي على الاقل , الذي يفيد الرغبة او الطموح او السعي لتحقيق كسب مادي , فان مثل هذا التنافس غير قائم ولا وجود له في مجتمع السجن , لانعدام وجود السلع وغياب فرص العمل الحر وعدم توفر مجالات الكسب التجاري بمعناه التقليدي الحر . ولكن هناك تنافس بديل ومن نوع اخر – فهو يتخذ صورة اخرى تتصل بمفهوم المنزلة الاجتماعية ذاتها حيث يتنافس السجناء للحصول على مركز يحقق لهم بعض المكاسب الخاصة الاستثنائية ذات الصلة بحياة السجين كتقريب فرصة الحصول على افراج شرطي او القيام بعمل يساعد السجين على الحصول على بعض الامتيازات الخاصة الأخرى.أما ثقافة السجن ذاتها the prison culture فهي على الارجح حصيلة هامشية – by product لثقافة اجرامية سفلية criminal subculture حيث ان شريعة السجن لاتختلف كثيرا عن شريعة المجرمين the criminal code في عالمهم الاجرامي السفلي the criminal underworld اذ هي تكاد تكون معروفة داخل السجن وخارجه. ولعل غالبية العائدين the recidivists الذين يترددون على السجن يحملون معهم عناصر مثل هذه الثقافة السفلية التي تطبع بعض جوانب سلوكياتهم واتجاهاتهم وفلسفاتهم الحياتية بطابع اجرامي واضح.

أما ثقافة السراق السفلية فهي ثقافة طبقة القادة او الفئة المسيطرة او المهيمنة على تقاليد الامور في مجتمع السجن , وهؤلاء يتمتعون بسمعة اجرامية عريقة داخل السجن وخارجه. وغالبا ما تتمتع هذه الفئة بامتيازات خاصة داخل السجن بسبب سيطرتها الفعلية على بعض الوظائف الحيوية التي تتيح لهم الحصول على مثل هذه الامتيازات. ويطلق السجناء صفات واسماء متعددة على هذه الفئة قد تختلف من سجن الى اخر كصفة ((الرجل الكبير)) او ((العقل المدبر)) او ((الرجل السياسي)) او ((العنيف)) او ((الخبير)) او ((التاجر)) او ((الرجل الحقيقي)) او صفات اخرى تشير الى الخبرة والمهارة والاهمية في عالم الجريمة. ويشار الى هذه الفئة بالمجرمين الحقيقيين الذين يرتكبون الجريمة الحقيقية , كالسرقات الكبرى بكل انواعها كالسطو المسلح على البيوت والمتاجر والمصارف او غيرها. وتعكس ثقافة هذه الفئة ثقافة ((اللص المحترف)) المعروفة في عالم الاجرام السفلي. وهي ثقافة تقوم على مجموعة من القيم والاخلاقيات والمواقف والطموحات والفلسفات الحياتية التي تطبع حياة المجرمين المحترفين. وتعد عقوبة الحبس لدى هذه الفئة من المحترفين عقبة محتملة لا مفر من مواجهتها بين وقت وآخر كجزء من مخاطر المهنة اذ لابد من القبض على اللص يوما ما مهما حالفه الحظ في عملياته الاجرامية الطويلة وخبراته ومهاراته.

ان ثقافة السجن الحقيقية هي التي تنمو وتترعرع من خلال مدة الحبس الطويلة وفي السجون المركزية الكبيرة خلافا لإصلاحيات الأحداث أو المدارس الصناعية للأحداث التي تضم احداثا صغار السن يفتقرون الى تجارب الحبس.كما ولا تنطبق هذه الثقافة على السجون الريفية المحلية او السجون المعدة لقضاء المدة القصيرة لجرائم الجنح والمخالفات والتي لا تحتفظ بالسجين مدة طويلة. كما ولا تنطبق هذه الثقافة على المجرمين المحترفين الذين يقضون مدة سجنهم بأحسن السلوك والذين يسعون كل جهدهم لإطلاق سراحهم من خلال افراج شرطي يقوم على الالتزام بحسن السيرة والسلوك طيلة مدة حبسهم .

وأما ثقافة الشخص المستقيم فهي تمثل ثقافة السواد الاعظم من نزلاء السجون ممن لا ينتمون الى عالم الاجرام السفلي ولا يمتون الى ثقافة السجن بصلة كبيرة. انهم يمثلون الفئات البشرية الاخرى ذات الطابع المسالم الذي يريد ان يحيا حياة هادئة وبأقل قدر ممكن من المشكلات. فهم يتكيفون لمجتمع السجن بسلوك اعتيادي مقبول قد لا يختلف في معاييره وقيمه الاساسية عن معايير وقيم السلوك التقليدي المطلوبة في المجتمع التقليدي الحر[٢٤].

اثار ثقافة السجن على العملية الاصلاحية :

ماذا يحدث للسجين منذ دخوله للسجن حتى اطلاق سراحه؟ وما مدى استجابته للعملية الاصلاحية – التقويمية التي توفرها ادارة السجون من خلال الانظمة

والتعليمات ؟ وكيف تؤثر عملية ((التسجين)) على استجابة السجين للإصلاح ؟ وهل تتوقف العملية الاصلاحية – التقويمية على ما يحققه السجين من علاقات مع موظفي السجن او بمدى التزامه بتعليمات السجن فيما يتصل بمفردات المناهج الاصلاحية ؟ وهل يستطيع السجن في النهاية اصلاح السجين او تقويم شخصيته واعادته الى المجتمع مواطنا صالحا كما يأمل المتفائلون أم إن السجون الحالية في معظمها , وبما توفره من مجتمع خاص وثقافة سفلية , انحدرت اليوم لتكون مدارس للإجرام كما يزعم بعض المتشائمين ؟

ليس من السهل علينا تهيئة الاجابات العلمية الجاهزة للرد على مثل هذه التساؤلات الجوهرية التي يثيرها الكثير من المعنيين وغير المعنيين بإدارة السجون ومعاملة السجناء. والواقع اننا لا زلنا لا نعلم الكثير عن دينامية ((عملية الحبس)) ولا عن كيفية رصد اثارها السلبية او الايجابية بدقة على سلوك السجناء وعلى تشكيل شخصياتهم او تحوير سلوكياتهم وذلك من خلال كل ما يوفره السجن من مناخ او مناهج اصلاحية كمؤسسة غير عقابية .

إن عملية الحبس في جوهرها عملية نفسية – اجتماعية ولكنها ذات تركيب بنائي معقد لأنها تتضمن شبكة متداخلة من العلاقات والتفاعلات التي تجري بين السجناء انفسهم من جهة وبين السجناء وهيئة السجن وموظفيه من جهة ثانية وبين السجناء وانظمة السجن وقوانينه وتعليماته من جهة ثالثة وبين السجناء وبين ثقافة السجن ومفرداتها من جهة اخيرة. ومن خلال هذه الشبكة المتلاحمة من العلاقات والتفاعلات قد ينصلح بعض السجناء وتقوّم شخصياتهم , وقد يزداد بعضهم سوءاً بل ويصبحون اكثر عنفا واجراما. كما وقد لا يؤثر السجن على البعض سلبا او ايجابا. اننا اذا ازاء عملية تفاضلية (نسبية) لا تعمل مع الجميع بصورة واحدة بل ان نتائجها تتوقف على مجموعة من العناصر الشخصية والبيئية من جهة , ومن الجهة الاخرى على بعض الاستجابات النفسية للسجين لعناصر ثقافة السجن ومجتمعه سواء كانت هذه العناصر رسمية او غير رسمية.

فالسجين الجديد الذي يدخل السجن لاشك انه يحمل معه بعض عناصر ثقافته المرجعية التي ينتمي اليها قبل دخوله السجن. وفي اطار هذه الارضية الثقافية ومدى انتمائه اليها تتحدد فاعلية ثقافة السجن الفرعية في احتواء السجين وتطويعه لحياة السجن. فالسجين السارق غالبا ما يتأقلم لحياة السجن من خلال ((ثقافة السراق السفلية)) التي قد تشيع في مجتمع السجن.

والمجرم من ارباب السوابق الاجرامية او من ذوي الخبرات المتعاقبة لا يجد صعوبة في العيش مع معايير السجن وثقافته الفرعية. اما السجين الاعتيادي الذي ينتمي الى ثقافة مستقيمة لا اجرامية فهو يحاول التكيف مع حياة السجن بوسائل تقرب الى الوسائل التقليدية المشروعة التي يمكن ان تحقق له شيئا من المنزلة الجيدة بين السجناء او تؤهله لكسب الوقت بأقل قدر من المشكلات السلوكية.

إن ثقافة السجن وما تفرزه من متغيرات متعددة يمكن ان تعيق مسيرة العملية الاصلاحية او تؤثر في نتائجها وجدواها. ان بعض الدراسات العلمية تشير الى ان عملية الاصلاح داخل السجون لا تؤثر تأثيراً كبيرا في معدلات العود الى الجريمة. ذلك ان العود الى الجريمة او عدم العود اليها هو المعيار العملي لجدوى العملية الاصلاحية التي يتلقاها السجين داخل المؤسسة. فالسارق المحترف يظل سارقا محترفا بعد اطلاق سراحه من السجن. وكذلك المجرم العائد الذي اعتاد العيش في السجون سوف يعود الى السجن مرة بعد اخرى لأنه قد يجد في السجن نزلا ينزل فيه ومأوى يأوي إليه كلما دعت الحاجة. وأما أولئك الأشخاص المستقيمون من السجناء الذين لا ينتمون الى ثقافة اجرامية محترفة ولا اعتادوا حياة السجن فان غالبيتهم لا يعودون الى السجن ليس بسبب اصلاحهم من قبل السجن بل انهم لا يعودون الى الاجرام لعدم انتمائهم الى عالم الجريمة السفلي ولا الى مجتمع ارباب السوابق من العائدين.

ولا شك أن السجن المعاصر لا يحمل اليوم هوية نفي المجرمين الى العالم الجديد او ارسالهم الى العالم الاخر ولكنه لازال يلقي بظلال الشك حول مدى نجاحه كمؤسسة غير عقابية تهدف الى اصلاح المجرمين وتقويم سلوكهم. ويقول احد علماء الجريمة ان فكرة الاصلاح برمتها فكرة خاطئة لأنها تجري داخل مؤسسة عقابية يطغى فيها مطلب الحراسة ومنع الهروب فوق كل مطلب اصلاحي اخر.

لقد باتت مهمة السجن اليوم في احسن الاحوال هي المحافظة على بقاء السجين على حالته ما امكن دون الاسهام في انحداره الى مستويات ادنى.

ويقول احد علماء الجريمة ان الحياة في السجن تسهم الى حد كبير في رفع السجين التافه الى مجرم على درجة من الخطورة والسجين السطحي الى مجرم عميق الاجرام والسجين غير المنطقي الى شخص منطقي[٢٥].

المبحث الخامس

أهم البرامج الإصلاحية التي ينبغي القيام بها في إطار التعامل مع النزلاء :

١- برنامج الاستقبال:- يصل السجين إلى المؤسسة وخصوصا السجين غير العائد ليجد نفسه في بيئة غريبة عنه وعليه أن يتكيف مع ظروفها كما أن إدارة السجن ينبغي أن تضيف إلى سجلاتها نزيلا جديدا تكون مسؤولة عنه مسؤولية مباشرة وان توفر له برامج معينه

ولا شك أن السجين لا يستطيع أن يتكيف لتلك البيئة دون أن يحوز على معلومات عنها كما وان إدارة السجن لا تستطيع أن تقوم بدورها الإصلاحي ما لم تعرف السجين ولذلك يتضمن برنامج الاستقبال ثلاثة أنواع من البرامج هي :-

أ - البرنامج التعريفي بالبيئة الجديدة التي يتم تعريفها للنزيل وإيضاح ما يجب عليه وماله من حقوق وواجبات.
ب-برنامج تسجيل النزيل بعد استلامه وتسليمه الحاجات الضرورية لحياته داخل السجن أو المؤسسة.
ج- برنامج الدراسة العلمية لشخصيه السجين والتي تتضمن الإحاطة بكل جوانب شخصيته من النواحي النفسية والاجتماعية والبايولوجية والتعرف على مهاراته العلمية والمهنية وبالتالي تقرير نوع المعاملة التي ينبغي الأخذ بها تجاه هذا السجين إن مبدأ معاملة السجين مبدأ مهم في الفلسفة الإصلاحية يأخذ بالحسبان إن كل سجين له مميزاته الشخصية التي تجعله يختلف عن غيره[٢٦] .
٢- برنامج العمل والتأهيل المهني :- العمل واجب على كل عضو في المجتمع وقد يؤدي فقدان المرء للعمل أي بطالته إلى ارتكاب الجريمة أي إن الإنسان الذي يستطيع أن يكسب رزقه من خلال مهنة يتقنها يمكن أن يحصن نفسه من الجريمة فإذا ارتكبها وجب توفير المهارات المهنية الضرورية له ويحقق برنامج العمل عدة أهداف مهمة منها.
أ- انه يشغل جانبا مهما من وقت السجين وبذلك يجنبه ويجنب الإدارة الكثير من المشكلات
ب- انه يدعم في ذاته قيم حب العمل كمصدر للرزق ولخدمة المجتمع ويوطد احترافه لذاته.
ج- انه يوفر له المهنة المناسبة التي تمكنه من أداء دور مقبول في المجتمع[٢٧] .
لقد حددت الفلسفة الإصلاحية الحديثة شروطا معينه لكي يعطي هذا العمل ثماره ومن أهم هذه الشروط هي :-

١- مراعاة رغبه السجين أو النزيل في اختيار العمل.
٢- مراعاة القدرة البدنية للنزيل ومدى اتفاقها مع ما يتطلبه العمل.
٣- ملاءمة العمل الذي يتدرب عليه لبيئته ذلك إن الهدف النهائي لهذا التدريب هو تمكين السجين من مزاولة عمل شريف بعد انقضاء محكومتيه.
٤- أن يجري العمل في ظروف مناسبة تماثل الظروف التي يجري العمل فيها خارج المؤسسة الإصلاحية .
٥- توفير متطلبات الأمن الصناعي والصحة المهنية.
٦- مكافأة السجين عن عمله بأجر محدد.

إن لبرامج العمل الأهمية الكبرى غير إن نجاحه وفاعليته تتعلق بعوامل وشروط عديدة أخرى منها الإمكانيات المادية المتاحة ومساحة المؤسسة ومدى توفر الساحات الضرورية فيها ومدى توفر المدربين والأجهزة والآلات المناسبة والحوافز التي توفر للمتدربين[٢٨] .
٣-برنامج التوجيه والإرشاد الديني:- التقوى الدينية اثر مهم في حث الإنسان على السلوك السوي وإيجاد الحصانة المناسبة له من الوقوع في شرك الجريمة

والسلوك المنحرف ولذلك تقوم المؤسسات الإصلاحية بإيجاد برنامج للتوجيه الديني يستهدف تعميق إحساس النزيل بالتقوى ومخافة الله من خلال المحاضرات التي يلقيها رجال الدين لهم ثقافة خاصة بظروف المؤسسة تحث السجين على أداء الشعائر الدينية وتوفر له الظروف الملائمة لذلك وتهيئ له الكتب الضرورية .

٤-برنامج التربية والتعليم أي التعليم في السجون :- تظهر كثير من الدراسات المتعلقة بالسلوك الإجرامي إن اغلب مرتكبي الجرائم المختلفة أما أن يكونوا من الأميين أو من مستويات تعليمية متدنية جدا وبالضرورة يكون مستوى وعيهم الثقافي قريباً من التدني ومع إن الحالة التعليمية قد لا تكون سببا مباشرا في ارتكاب الجريمة فان ترك الحدث لمدرسته مثلا يعني انه سينشغل بتصرفات تقوده إلى ارتكاب فعل يعاقب عليه القانون كما إن الراشد الأمي يكون اقل وعيا بآثار عمله من المتعلم ومن هنا فان التربية والتعليم لها اثر مهم في تعميق وعي النزيل وتعريفه بدوره الاجتماعي ومسؤولياته إزاء أسرته وإزاء المجتمع بل وإزاء نفسه أيضاً ويأخذ هذا النوع من التعليم أشكال متعددة نذكر منها الأتي :-

أ- صفوف محو ألاميه.
ب- المدارس النظامية.
جـ- مدارس التدريب المهني.
د- المكتبات.
ر- ملفات المناقشة.
ز- النشرات الجدارية والصحف والوسائل الإعلامية الأخرى[٢٩] .

٥-برنامج الرياضة البدنية والتجهيزات المادية : لابد لإدارة السجن أن توفر جملة من المستلزمات والتجهيزات المادية التي تمكن النزيل من العيش في بيئة المؤسسة ومنها الملابس ووجبات الغذاء والأماكن الملائمة التي يضع فيها حاجياته كما يضمن له مكانا ملائما للنوم والاستحمام وتناول الطعام وقص الشعر ومكان يلتقي فيه زواره من الأهل والأصدقاء وفي بعض المؤسسات الكبيرة تضم حتى نوادي صغيرة وأماكن لممارسه بعض الألعاب من جانب أخر ينبغي على إدارة المؤسسة إن توفر للنزيل برنامجا للتربية الرياضية الذي يمكنه من الحفاظ على صحته ويعزز قدراته النفسية ومقاومتها لظروف السجن الصعبة إن تلك البرامج الرياضية تعمق العلاقات الجماعية التعاونية بين النزلاء وتستثمر مساحة واسعة من وقت الفراغ وتوثق العلاقة بينهم وبين الإدارة[٣٠] .

٦- برنامج الرعاية الطبية:إن بيئة السجن وغالبا بسبب اكتظاظها تصعب السيطرة على متغيرات الصحة والمرض فيها . وأحياناً بسبب عدم التزام النزلاء أنفسهم بالتعليمات الصحية كل ذلك يجعل الرعاية الطبية تمتاز بأهمية خاصة ومن المفيد دائما أن تكون هناك وحدة طبية تتألف من طبيب أو أكثر ومساعديه ومركز يضم عدة أسرة وصيدلية وان يكون هناك اتصال سهل وسريع ومن

المهم إجراء فحوص دورية للنزلاء ومتابعة الحالات الصحية الخطيرة ذات التأثير المباشر في الآخرين إن بعض الأمراض قد تنتقل من المؤسسة الى خارجها وخصوصا من خلال الزيارات التي تقوم بها عوائل النزلاء إليهم وهذا يعني أن من المهم أن يبقى في أذهاننا دائما حقيقة أن المؤسسة الإصلاحية هي جزء من المجتمع لا تنفصل ولا تتجزأ عنه وقد تعمد الإدارة من الإفادة من بعض النزلاء للمساعدة في تقديم الخدمات الطبية للآخرين كما أنها قد تتعاون مع بعض المؤسسات المتخصصة لإجراء دراسات تقويميه للبيئة الصحيحة للمؤسسة .

٧- برنامج الزيارات:إن علاقة السجين أو النزيل بالمجتمع وخصوصا بأسرته ينبغي أن تستمر وقد وجد أن حجز السجين لمدة طويلة في السجن يبعد الثقة بينه وبين المجتمع ولعل ذلك هو الذي دفع المختصين الى التفكير بعمليات إصلاح خارج السجن وإذا استدعت حالة بعض المحكومين معالجتهم في بيئة مغلقه فان تحديد هذه الحرية يستلزم أن يكون لأقصى مدة ممكنة .

إن انتظام علاقة النزيل بالمجتمع يمكن أن تتم من خلال برنامج منتظم يتضمن عدة فعاليات من أهمها.

أ- الزيارات التي تقوم بها اسر النزلاء لهم في أيام محددة ومعنية

ب- الإجازات المنزلية الدورية التي يطلق فيها السجين لكي يذهب الى عائلته ويلتقي بأفرادها ويتعايش معهم[٣١] .

إن برنامج التأديب في السجن الحديث لا تتعدى مجموع الإجراءات التي تلزم وتحث تلقائيا على المحافظة على المستويات السليمة والمقبولة للعمل والنظام والتدريب والتعلم والنظافة أعلاه على انه يتضمن المحافظة على المعايير داخل المؤسسة ولذلك فان هذا البرنامج ليس قاصرا على مجرد رصد وضبط المخالفات بل انه يشمل كذلك التوجيه والتنظيم لكي يؤدي النزلاء أعمالهم وبرامجهم بشكل مرض.
لقد عنيت قواعد الحد الأدنى لمعامله المذنبين بهذه الناحية فأشارت الى قواعد مهمة لتنظيمها:-

١- حق المسجون في العلم بالقواعد التأديبية المعمول بها في المؤسسة
٢- ضرورة أن تحدد المسائل المتعلقة بالتأديب بقانون أو لائحة إدارية فتحدد السلوك الذي يعد مخالفه تأديبية ونوع ومدة الجزاء التأديبي الجائز توقيعه والسلطة المختصة بتوقيع هذا الجزاء .
٣- عدم جواز معاقبه السجين إلا وفق القانون ولا يجوز تنفيذ العقاب إلا بعد أخطاره وإتاحة الفرصة له لتقديم دفاعه.
٤- حظر توقيع العقوبات البدنية وكل العقوبات القاسية .
٥- عدم جواز استخدام أدوات الإكراه كالقيود والسلاسل إن كل تلك البرامج والإجراءات تمثل صيغ التعامل مع نزلاء المؤسسات الإصلاحية وفي كل الأحوال ينبغي أن تنطوي تلك الإجراءات على مبادئ قيمية مهمة .

يمكن تحديدها فيما يلي:-

أ. مراعاة إنسانية النزيل .
ب. مراعاة الوظيفة العقابية للمؤسسة إذ لابد أن يشعر النزيل انه يقضي فيها وقتا مقابل فعل ارتكبه ضد المجتمع.
ج. مراعاة حق النزيل في الإصلاح .
د. مراعاة حق المجتمع في أن يعود النزيل إليه.
ه. تأكيد مبدأ واجب الدولة ومؤسساتها المختصة في إنجاح البرامج الضرورية للتعامل مع النزلاء[٣٢] .

الهوامش والمصادر :

١- أحمد أبو زيد , العقوبة في القانون البدائي , المجلة الجنائية القومية , المجلد العاشر , العدد الثالث , القاهرة, ١٩٩٨ , ص١١ .
٢- الدوري , عدنان – علم العقاب ومعاملة المذنبين , منشورات دار السلاسل , الطبقة الأولى – ١٩٨٩ , ص٣٤٣ .
٣- أبو زهرة , محمد , الجريمة والعقوبة , دار الفكر العربي , القاهرة , ٢٠٠٠ , ص١٠٣ .
٤- المصدر نفسه , ص١٠٤ .
٥- الترمانيني , عبد السلام , تاريخ النظم والشرائع , الأردن , ط٢ , ٢٠٠٠ , ص٤٥ .
٦- العطار , محمد سلمان , الإجرام والمؤسسات العقابية ,بغداد , مطبعة دار التضامن , ١٩٦٥ , ص١٣-١٤ .
٧- المصدر نفسه , ص١٥ .
٨- الدوري , عدنان , علم العقاب ومعاملة المذنبين , مصدر سابق , ص٦ .
٩- السراج , عبود , علم الإجرام وعلم العقاب , منشورات دار السلاسل , الكويت , ط , ١٩٩٩ , ص٢٤ .
١٠- حسين , محمود نجيب , علم العقاب , دار النهضة العربية , القاهرة , ١٩٨٩ , ص٥٠ .
١١- المصدر نفسه , ص٥١ .
١٢- علي راشد , القانون الجنائي , المدخل وأصول النظرية العامة , ط٢ , ٢٠٠٠ , ص١٠ .
١٣- العوجي , مصطفى , دروس في العلم الجنائي , التصدي للجريمة , مؤسسة نوفل – بيروت , ١٩٩٩ , ص١٠٠ .
١٤- الدوري , عدنان , أصول علم الإجرام , أسباب الجريمة وطبيعة السلوك الإجرامي , منشورات دار السلاسل , ١٩٩٩ , ص٢٤٧ .
١٥- الترمانيني , عبد السلام , تاريخ النظم والشرائع , مصدر سابق , ص٢٧.

١٦- رحيم , محمد علي , السجن , دار النهضة العربية , القاهرة , ٢٠٠ , ص٣٩ .
١٧- المصدر نفسه , ص٤٠ .
١٨- الدوري , عدنان , علم العقاب ومعاملة المذنبين , مصدر سابق , ص ٣٤٥-٣٤٦ .
١٩- المصدر نفسه , ص٣٤٤-٣٤٥ .
٢٠- الرحيم , د.أحمد حسن , السجون وتطورها من وجهة نظر تربوية واجتماعية , مجلة البحوث الاجتماعية والجنائية , المركز القومي للبحوث , العدد الأول , السنة الرابعة , ١٩٨٥ , ص١٩٣-١٩٤ .
٢١- المصدر نفسه , ص١٩٥ .
٢٢- عبد الله عبد الغني غانم , مجتمع السجن , المكتب الجامعي , الإسكندرية , ١٩٩٠ , ص١٦٥ .
٢٣- راجع حول مؤتمر منع الجريمة ومعاملة المجرمين , مجلة العدالة , العدد الثاني , ١٩٨٩ , مركز البحوث القانونية , بغداد , ص١٥٩ .
٢٤- الحسن , د. إحسان محمد , التصنيع وتغير المجتمع , دار الطليعة للنشر , بيروت , ١٩٨١ , ص١١ .
٢٥- الياس , د. يونس , يراجع إصلاح السجناء , مجلة البحوث الاجتماعية , والجنائية , المركز القومي للبحوث , العدد الأول , السنة الأولى , ١٩٨٢ , ص١١٩ .
٢٦- المصدر نفسه , ص١٢٠-١٢١ .
٢٧. الرحيم , د. أحمد حسن , السجون وتطورها , مصدر سابق , ص٢٠٠ .
٢٨. - رحيم , محمد علي , السجن , مصدر سابق , ص ص ٤٠ , ٥٠ .
٢٩.الدوري :عدنان,مصدر سابق ,ص.٤٠٠
٣٠.عبد الله عبد الغني غانم ,مجتمع السجن ,مصدر سابق ,ص.١٧٠
٣١.المصدر نفسه , ص.١٧٢
٣٢.الدوري,عدنان,مصدر سابق ,ص٤٠٢.